القصص

من الأدب التركي

الزواج المبـــارك

ترجمة الآنسة « فتاة الفرات »

كنت سائراً يوماً وأحد رفقائي في شارع (بك اوغلي) أحد شوارع الآستانة الجميلة . وكان رفيقي على عادته يحدثني أحاديث مختلفة ، يحدثني عن نفسه وعن غيره أحاديث منها ما يقبل ومنها مايمج ويرد . وبينا هو يهدر في حديثه وقف فجأة وصاح :

ـ إلى أين ؟

التفت فاذا هو يكلم رجلاً طويل القامة محدودب الظهر ، كأنه قد تعب من الحياة ؛ أسمر اللون ، قد طال شعر رأسه ولحيته حتى خرجا عن الحد المألوف ، عليه بذلة لا يعلم إلا الله ما لونها ، قد أثر فيها الغسل الكثير حتى اختلطت ألوانها وتهلهل نسجها

فقال له رفيقي :

ـ ألا يزال الحال على مانعهد ؟

فهز الرجل رأسه علامة الايجاب وارتسمت على ثغره ابتسامة الترح لا ابتسامة الفرح

فقال له رفيقي :

ـ بارك الله فيهم . وانصرف عنه

ثم التفت إليّ وقال هل أقص عليك قصة هذا الرجل ؟

فقلت له على مضض :

ـ هات ما عندك

فأخذ يقص علي قصة الرجل ، يقصها بصورة مونقة ، لها من إشاراته اللطيفة ومن بيانه البديع خير حلية وأبدعها . قال :

هذا الرجل من لداتي في السن ، ومن رفقائي في العمل ، كنا مأموري حساب في مصنع حديدي ونحن في نهاية العقد الثاني من عمرنا ، وكان مرتبه الشهري أربعة دنانير ، ولكنه كان بالرغم من قلة الرتب ذا زي حسن وهندام جميل ، فاذا ظهر زي كان أسبق الناس إليه . كان زيه أحسن أزيائنا جميعاً ، وكان يفوقنا طراً في العناية بثيابه وجسمه ، فكان يحلق ذقنه في كل يومين مرة ، وكان مغرماً باللهو كثيراً ، فاذا كان يوم الاثنين جاءنا بكل طريف من أحاديث لهوه ومرحه في بياض يوم الأحد وسواد ليله ، ولم نكن نجد عند أحد مانجد عنده من أخبار معارض الصور ومسارح التمثيل والمتنزهات

جاء في يوم جمعة صباحاً إلى الدائرة وهو تحفة في هندامه وآية في زيه ؛ كان في رجله حذاء لماع قد جعل حوله قطعة جوخ من قماش بنطلونه ، وحول رقبته عقدة من قماش أزرق اللون قد ربطها ربطة جميلة ، وجعل في وسطها دبوساً ماسياً على شكل نحلة جناحاها من ياقوت ، لعله قد ورثه عن أمه ، ومن جيبه الخارجي تدلى منديل حريري ذو ألوان جميلة ، وفي صدره سلسلة ساعة ذهبية رأسها في عروة صدارته وطرفها الآخر في جيبها ، وفي أصبعه خاتم زمردي ، وفي رأسه طربوش صغير قاتم الحمرة يختال بلذة لارتفاعه فوق ذلك الهندام الجميل

فاجتمعنا حوله ضاحكين نسأله عن سر هندامه الجميل وتأنقه الشديد في هذا اليوم ، فقال :

ـ سأذهب اليوم إلى متنزه « كاغدخانه » ، وكل ما أرجوه منكم أن تكونوا عوناً لي على الرئيس ليسمح لي بالذهاب ، فان التأخير يضرني كل الضرر

ثم مد يده إلى جيب معطفه وأخرج محفظة أوراقه وسحب من بينها ورقة « حمراء » اللون لوح لنا بها وهو يتبسم ويقارب ما بين جفنيه وينظر إلينا نظرة ذات مغزى ، ولكنه ضنّ علينا بسر تلك الورقة ، وأهمنا ماأهمه ، وأحببنا أن ينعم ذلك اليوم بنزهة ،

فذهب أحد أصدقاء الرئيس إليه ، ومازال به يكلمه فى شأنه حتى سمح له بالذهاب فى ذلك اليوم . وكاد صاحبنا يجن حين علم ذلك . فكان يصفق بيديه ويخالف بين رجليه ، وقفز إلى الشارع وهو يقول :

ـ سأقص عليكم غداً ما يكون فى هذا اليوم

كنا ننظر إليه نظر حسد ممض ، ننظر إليه نظر المحبوس فى غرفة مظلمة يؤدى عملاً شاقاً ، إلى رجل حر ، طليق ، يسرح ويمرح كما يحب ويختار

أما هو فطار كما يطير العصفور أفلت من القفص . . .

عاد فى اليوم الثانى إلى عمله بهندامه المألوف ، فاجتمعنا حوله نسأله باصرار عن سر الورقة « الحمراء » وعن أخبار النزهة فى « كاغدخانه » ، فلزم السكوت مع أنه هو الذى وعدنا بأن يقص علينا ما يجرى معه هناك ! كان لا يجيبنا إلا بقوله :

ـ لا شىء ، لا شىء . . .

ويبتسم ابتساماً يدل على أن لديه أشياء كثيرة ، لكنه يود إخفاءها عنا

فلما قطعنا الأمل من إفشائه سر الورقة وأخبار النزهة عاد كل منا إلى مكانه وأقبل على عمله

أخذت ألاحظه ملاحظة خفية فرأيته بين آونة وأخرى يستتر خلف دفتره الذى أمامه ويفتح محفظته ويلقى على مافيها نظرة تنم عن غبطة وسرور . ثم رأيت ورقة « زرقاء » بجانب « الحمراء » ، فقلت له وهو يلقى خلسة نظرته المعتادة على مافى محفظته :

ـ أراك تهيىء نزهة أخرى فى « كاغدخانه » ؟

فأجابنى ضاحكاً

ـ ربما . . .

بعد هذا الأسبوع أصبح رفيق يتحلل أسباباً يسمح له معها الرئيس بالتغيب أيام الجمع ، فكان يذهب إلى متنزه « كاغدخانه » يقضى أيام الآحاد والجمع هناك ، ولكنه خلافاً لعاداته لا يقص علينا أخبار نزهاته ورياضاته . كنت ألاحظه دائماً من حيث لا يشعر بى ، فرأيت محفظته قد امتلأت بالأوراق « البنفسجية والخضراء ، والصفراء » بجانب « الزرقاء ، والحمراء »

فقلت فى نفسى ، كأن رفيق يستعرض الألوان متخيراً ، وسنرى أى لون يختاره فى النهاية ويستقر عليه رأيه

وبعد مدة علمنا اللون الذى وقع عليه اختياره . . . .

جاءنا فى صباح يوم بادى القلق ظاهر الاضطراب ، فأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا يحاول أن يتكلم ويفضى إلينا بشىء ولكنه لا يقدر ، ثم نظر إلى وجه كل واحد على حدة وقال :

ـ سأقول لكم شيئاً

حولنا جميعا أنظارنا إليه ، وكنت واثقاً أن ما سيقوله يتعلق بالأوراق الملونة التى فى محفظته فقال :

ـ سأتزوج . . .

فصعقنا لهذه الكلمة كأنها قنبلة سقطت علينا من السقف ، واستتلى فقال بكل جد :

ـ لقد سئمت هذه الحياة ، حياة الوحدة ، وعزمت على أن أستريح ، إن ملازمة غرف البيت والاشتغال بالعيال والأطفال خير من قضاء الليالى الطوال فى أماكن اللهو ومحال الفجور

فقلت له :

ـ إن مسألة الأطفال مسألة ثانية ، والمهم الآن أن نعرف من هم العيال ؟

فأجابنى بكل جد :

ـ إنها موافقة لى تمام الموافقة ، إنها ليست غنية ، وأنا لست من طلاب الغنى فى الزواج ، ستأتينى بثيابها فقط ، إن والدى ما زال يشكو من الوحدة بعد وفاة والدتى ، ويقول إن كل بيت يحتاج إلى امرأة ، فسأسبقه وأتزوج قبله ، هذا كل ما هنالك

فقلت له :

ـ لابد من صلة متينة بين هذا الزواج وبين الأوراق الملونة ؟

فلم يصدق ماقلت ولا أنكر ما ادعيت ، إنه سكت ، وكيف ينكر ما لا يقبل الانكار ؟

سمعنا هذا منه وسكتنا ، ولم يظهر بيننا من يخالفه فى رأيه الذى اعتزم عليه ، ولا من يقول له : إن الاقدام على الزواج مع مرتب ضئيل لا يتجاوز الأربعة دنانير كل شهر ، لا يدل على رأى حسن وفكر مستقيم ، وإن الزواج لو كان يترتب على كل رؤية يعقبها ميل لكان الزواج عبارة عن سلسلة لها أول وليس لها آخر

كان العقد وكان الرقاف ، وكانت الحفلات الشائقة التي نعمنا فيها بنعيم صديقنا . وبعد غياب أسبوع عاد إلى عمله وأول كلمة قالها هي :

ـ إني سعيد . . .

نعم كان سعيداً . . . كنا نعرف ذلك من الطيش الذي أظهره باستدانته من هنا وهناك نقوداً أنفقها في حفلات العرس . كنا نتحقق سعادته حينما نرى الصيارفة عند باب الدائرة في أكثر الأحيان . . . وحينما نراه يوم أخذ المرتب غارقاً يفكر وقلمه بيده يكتب أعدادا ويمحو أخرى . . .

لم نره مسروراً إلا أسبوعاً واحداً فقط

ثم جعلت ألاحظ أن خطوط الهم والتفكير أخذت تظهر على جبينه ، ولكنه مع ذلك كان بين آونة وأخرى يقول لنا :

ـ إنني سعيد . . .

كأنه يحاول بذلك أن يخدع نفسه ، أو كأنه يريد أن يخدعنا

سمعته في أحد الأيام وقد أخذ الموظفون يستعدون للذهاب إلى منازلهم للغداء يقول :

ـ إني اليوم أشعر بفتور في جسمي لا أقدر معه على الذهاب إلى البيت للطعام ، لذلك سأبقى هنا وسأتناول شيئاً من الخبز والجبن

وفي اليوم الثاني أتى بعلبة صغيرة ووضعها في درج مكتبه ثم أخرجها عند الظهر وقال :

ـ لقد رأيت أهل البيت يقددون لحماً فاشتهيت أن أجعل منه غدائي هذا اليوم

كأنه يريد أن يعتذر عن عدم ذهابه إلى البيت ليتناول فيه طعام الغداء على حسب العادة ، عند ذلك قوي عندي الشعور بسعادته وقلت :

ـ حقاً إنه جد سعيد . . .

أصبح بعد ذلك اليوم لا يخرج ظهراً إلى البيت لتناول طعام الغداء ، ولا يرى حاجة إلى الاعتذار عن ذلك إلى رفقائه ، وأصبح في أكثر الأحيان يأكل الخبز والجبن لا يزيد عليهما ، وربما أتى معه من البيت بسمك محمر ، أو لحم مقدد ، قد صر ذلك في جريدة ، وربما عدل عن اللحم إلى البيض المسلوق

رأيته يوماً يفتح قماشاً فوق منضدته ويقلبه بين يديه ويتأمله مفكراً ، فلما وقع نظره على نظري رفع قطعة القماش بيده وقال لي :

ـ ألا تعجبك هذه القطعة لمعطف نسائي ! إنها حقيرة في نظرها لأن ثمنها ثلاثة دنانير !

لقد أقدم على شراء معطف بثلاثة دنانير مع أن مرتبه الشهري أربعة فقط ! ومع هذا فهي ساخطة وتعدها حقيرة . . .

يا للغرابة ! . . لم أر من اللياقة أن أجيبه بما يجب ، فأرسلت زفرة من أعماق قلبي وقلت :

ـ انه سعيد وسعيد . . . !

في اليوم الثاني أخذنا مرتباتنا ، وبينما كنا خارجين من الدائرة كان أحد الصيارفة في انتظاره عند الباب فتعلق به وطالبه بنقوده صائحاً معربداً ، فدفعه عنه ، ولكن الصيرفي أخذ بتلابيبه ، ولم يرض أن يتركه حتى يدفع له كل ما عليه ، فتخلص منه بعد جهد ، وعاد الينا قائلاً كأنه بكلامه يريد أن يخفف وقع المنظر في نفوسنا :

ـ يا له من وقح ! كأني قد أنكرت ماله عليّ من دين ، فهو يطالبني بهذه الشدة !

فقلت في نفسي :

ستدفع اليه ماله بلا شك ، وما الذي يقوله هذا النذل فيك إذا أنت لم تأخذ من المرتب إلا ثمن المعطف الذي قدمته للفتاة التي عبثت بلبك بوريقاتها الزاهيـــة ، وإلا نفقاتك البيتية والخصوصية ، ثم قدمت اليه الباقي جملة واحدة ؟ !

كان يفقد نشاطه بالتدريج ، لقد حل مكان النشاط سكون وفتور ، أما اعتناؤه بزيه وهندامه فكان يقل شيئاً فشيئاً ، ولكنا مع ذلك كنا أحياناً نرى دبوسيه الماسي فوق عقدة رقبته ، وخاتمه الزمردي في أصبعه ، وسلسلة ساعته على صدره

أما الثياب فكان يقضي داخل الحلة الواحدة فصلاً كاملاً ، وكان لا يبدل قميصه إلا نادراً ، وظهر عليه انقباض ، فربما مرت عليه أيام لا يحرك شفته فيها بكلمة

كنا نشعر نحن أن وراء هذا التبدل ماوراءه من حياة بيتية مضطربة . . . . إلا أنه جاءنا يوماً على غير عادته فرحاً مستبشراً فقال لنا عند دخوله :

ـ هنئوني ، لقد رزقت اليوم فتاة

ثم نظر الى تقويم الأوقات وكتب في دفتره :

١٥ آذار ١٣٠٠

هنأه كلهم بالمولود الجديد وأنا من جملتهم وقلت :

ـ ها قد جاء دور الأطفال بعد العيال

جاءني بعد أسبوع وقال والحمرة تعلو وجهه :

ـ هل عندك دينار تقرضني إياه ؟

ثم أردف قائلاً من غير أن يترك مجالاً لرد طلبه :

ـ يجب عليّ أن أدفعه الى القابلة

لقد سمعت الدينار فى جيبى يزفر زفرة حرى . ولكن لم يكن فى استطاعتى أن أرد طلبه ، فأعطيته الدينار . ومن الغريب أنه منذ ذاك الحين أخذ يعاملني معاملة باردة ، ويقابلني بوجه جاف ، مع أنه لم يكن ثمة حاجة الى ذلك ، لأنى منذ ناولته « الدينار » نفضت يدى منه

لقد تغير حال رفيقنا وازداد اضطرابه بعد أن صار أباً . دخل يوماً الى الدائرة وهو يقول :

ـ ألا تسألون عما حلّ بى ؟

فأخذنا ننظر اليه بقلق وننتظر أن يذكر لنا ماحلّ به ، ففتح حينذاك ملفاً صغيراً بيده وأخرج منه علبة صغيرة سوداء فرفع غطاءها وأرانا إياها فاذا فيها :

ثدى صناعى . وقال :

ـ إن زوجتى لن ترضع ابنتها بعد الآن ، سنرضعها بالثدى الصناعى ، فهل تدرون لماذا ؟

حينذاك توقف عن إتمام كلامه كأنه كان يتردد بين أن يقول وبين أن يسكت ثم قال وهو خجل :

ـ لأنها حامل !

كان ينظر الينا باضطراب ، وكان منظره مؤلماً ومضحكاً معاً

رأيته يوماً عند طعام الظهر أخرج قطعة « كمك » وقطعة من جبن « القشقاوان » وأخذ يأكلها وهو يتمتم قائلاً :

ـ أنت تجوع وابنتك فى البيت تأكل مرق اللحم الدسم

أخذت علائم الحزن ترتسم على محياه وتظهر بأجلى مظاهرها ، وبدت على وجهه معان مؤلمة حزينة لبعد عهده بالنوسى ، وكان كثيراً ما يكلم نفسه كالمجانين ، وكثيراً ما يشتغل بحسابه الخاص ـ حساب الدين ـ عن حساب الدائرة ، ويسافر بفكره الى أقصى حدود الخيال

عدنا يوماً من الغداء الى الدائرة فرأيناه يخيط بطانة معطفه ، ذاك المعطف الذى صحبه زمناً طويلاً ، فخجل منا وقال :

ـ إن زوجتى مريضة لذلك أنا أخيط ثيابى بيدى

إنه لم يقل الحقيقة لأنه ماكان يخيط بطانة معطفه الفتوقة ، بل كان يرفو بطانته التى تهلهل نسجها لطول الأيام

حينما ذكر لنا خبر ولادة المولود الثانى لم يكن فرحاً مستبشراً كما كان فى أول مرة بل قال :

ـ لقد رزقت اليوم غلاما

ثم نظر الى تقويم الأوقات وأخرج دفتره من جيبه وكتب فيه :

١٢ نيسان ١٣٠١

لم نره بعد ذلك شكا أو تبرم ، ولكنه كظم كل ذلك فى قلبه صابراً مستسلماً لقضاء الله وقدره . سمينا مع الرفاق عند رئيس الشركة ليزيد راتبه فلم نفلح ، وكان جواب الشركة :

ـ إن أولاد الموظفين ليسوا من صنع معاملها حتى تتكفل بهم .

أربعة دنانير للزوجين وللمولدين . . . . .

صار طعامه عند الظهر الخبز والجبن بصورة منتظمة ، ولم نعد نراه فى متنزه ولا متفرج ، وأنزل نوع تبغه الذى يدخنه درجة ثم درجات ، وأصبح كثير النظر فى أوراق الحساب ، وفى آخر أحد الشهور زاره الصيرفى الملح يطالبه بالدين فصاح به :

ـ لن أعطيك ، لن أعطيك شيئاً ، افعل ما تشاء

لقد كان قبل اليوم يكلمه سراً ، أما اليوم فهو يكلمه علناً ، لأنه لم يعد يخجل منا

جاءنا فى صباح أحد الأيام وبيده علبة فيها ثدى صناعى . فقلت له :

ـ ما هذا ؟

فقال :

ـ لا شىء

كأنه خجل أن يقول ما قاله أولاً ، وفى ذاك النهار لم يزاول عملاً ، ولكنه جعل رأسه بين يديه واسترسل فى أفكاره حتى المساء ، لا ينظر الى شىء ولا إلى أحد

ولاحت منى التفاتة اليه أحد الأيام فاذا هو ينظر الى تقويم الأوقات ثم يخرج دفتره من جيبه ؛ فقلت له :

ـ هل من قيد جديد لزائر جديد ؟

فأرسل نفساً قصيراً وكتب فى الدفتر :

١٠ مايس ١٣٠٢

ثم قال وهو ينظر إلى مبتسماً ابتسامة مؤلمة :

ـ لقد رزقت اليوم فتاة أخرى

كنت أنا أشعر من أعماق نفسي بألم من كثرة أولاد هذا الرفيق ، أما هو فكان يبكي من فرط تأله ، فحول عينيه عني وأقبل على عمله . أخرج يوماً ساعته من جيبه وفصل عنها سلسلتها الذهبية ولفها بورقة ، فقلت في نفسي :

ـ لن نرى السلسلة الذهبية بعد الآن

إن رفيقي لم يدفع ثمن القهوة في هذا الشهر ، وأصبح منذ ذاك اليوم يشربها مرة واحدة في النهار بدلاً من ثلاث مرات . ساءت حال الرجل واشتد به الضيق ، وظهرت ملابسه ملوثة بقع الحبر ، واستحال لونها ، وتهلهل نسجها ووهى ، فكنت إذا رأيته على هذه الحال رثيت له وبكيت عليه . ولقد دخل عليّ يوماً وعليه حلة جديدة لم أرها عليه قبلاً ، ففرحت لذلك ، الا أن فرحي لم يطل ، فقد قال لي غير خجل مني :

ـ إنها قديمة ، ولكني صبغتها فصارت جديدة

وبعد هذا الاعتراف أصبحنا صفيين ، وزال ما بيننا من الفتور الذي سببه « الدينار » واتخذني كاتماً لأسراره ، يبثني آلامه وأحزانه . لقد سرد عليّ تدريجاً كل آلامه في الحياة . فذكر لي أولاً مبدأ صلته بزوجته وأساس هيامه بها ، وأن ذلك كان في متنزه « كاغدخانه » ، وبسبب تلك الأوراق الملونة . . . وأنه كان يأمل أن ينعم بالأقتران بها ، إلا أنه لم ينعم بذلك إلا أسبوعاً واحداً وأتى بعد ذلك الشقاء ... ، ثم تجلت حياة البؤس من اجتماع فقره وفقرها ، فكان بينهما نزاع سببه عدم تمكنه من تأدية نفقاتها وطلباتها ... ثم الأولاد ...

وعاد الى زوجته فقال :

ـ إنها لما رأت نفسها محرومة مما تشتهي من ملبس ومأكل ومشرب أخذت تعامله معاملة قاسية لا تطاق ، ولكن ماذا يعمل هو إزاء ذلك ، وها هو لم يلبس بذلة جديدة منذ تزوج حتى الآن ، وأن ياقاته قد تمزقت فقلبها على قفاها لأنه لا يجد غيرها ولا يستطيع الوصول اليه ، على أنه قد عزم على أن يتخذها من مشمع كيلا تتمزق سريعاً ، وها إن ولديه الأثنين قد كبرا ، وهما في حاجة الى ثياب والى أحذية لا يجدها

وكان بعد ذلك اليوم الذي نفض فيه جعبته أمامي ، يسمعني كل يوم فصلاً من فصول حياته المؤلمة . نظر إلى يوماً وهو يريني قماشاً أخذه لأبنته الكبرى وقال :

ـ سأقول لك شيئاً

ثم عاد وقال :

ـ لن أقول لأنك لا تصدق

إلا أني عرفت ما يقصده حينما رأيت دفتره في يده ونظره في تقويم الأوقات ، لقد كتب في دفتره :

٨ حزيران سنة ١٣٠٣

فقلت له :

ـ أطفل أيضاً ؟

قال : نعم غلام ، وقد أصبحوا أربعة

ثم قال وهو يبتسم :

ـ إنهم لا يخطئون نوبتهم : فتاة ثم غلام ، ثم فتاة ثم غلام ، وهكذا . .

كان يضحك ولكن كان قلبه يبكي . فقال لي في نفس ذلك اليوم :

إن الدخان يؤثر في صدره ويؤذيه ، وهو يرغب في تركه لو يستطيع

أدركت ما يقصده المسكين من ترك الدخان ، فتألمت له كثيراً حتى كدت أبكي

رزق ولداً آخر ، فصار الأولاد خمسة ، وفي ذلك اليوم خرجت نفسه من يده ، فانه ما كاد يدخل الدائرة ويجلس إلى منضدته حتى أخرج دفتره وكتب فيه وهو ينشج نشيجاً يفتت الكبد ويصدع القلب : ٥ تموز ١٣٠٤

فقال بعض رفقائنا الجفاة ساخراً منه :

ـ ضع أرقاماً متسلسلة بجانب أولادك كيلا تنسى عددهم ...

كانت الخامسة فتاة على الترتيب المعتاد

بعد ذلك بقيت معه ثلاث سنين في الوظيفة رأيته فيها ثلاث مرات يكتب في دفتره

كتب فيه بجانب اسم فتاة وغلامين :

١٤ آب ١٣٠٥

٨ ايلول ١٣٠٦

١٤ تشرين الأول ١٣٠٧

[البقية على صفحة ٢٠٠٠]